ندوة "الإسلاميون ونظام الحكم الديمقراطي في المرحلة الانتقالية للثورات العربية"

ملخص الورقة البحثية

طه جابر العلواني

القاهرة 1 مايو 2012

موقف الإسلاميين أو جماعات الإسلام السياسي موقف لا يحسدون عليه؛ فهم ما بين مطرقة الأصالة والتراث وسندان المعاصرة والحداثة. الخصمان اللدودان اللّذان لا يلتقيان بحال؛ لأنهما عند النظر في حقائقهما المبادئية ضدّان لا يجتمعان، فالأصالة التي انطلق الإسلاميون منها في عمليات بعث الأمة وتنشيطها لمقاومة الاستعمار وتحقيق الاستقلال كانت تقوم على استحياء التراث بكل جوانبه، وتوظيف الذاكرة التاريخية للأمة لتثويرها ودفعها لخوض معارك الاستقلال. فالجهاد بكل ما فيه وبكل الأفهام المستقيمة والمنحرفة لقضاياه وتفاصيله تم استحضاره، وتم توظيفه بدرجة جعلته ينتقل من موقف تجاه المحتل المعادي إلى موقف تجاه أبناء الأمة في الداخل من المخالفين للرؤية الإسلامية كما يراها أهل الإسلام السياسي. ودفعت الأمة ما دفعته من أثمان في صراعات تاريخية بعد تحول فكرة الدعوة إلى فكرة الفتح. وقد مرّت الأمة قبل ذلك بصراعات كثيرة، فما من عصر من العصور خلا من صراعات داخلية ومن فتن كانت وراءها عوامل الشحن والتعبئة الداخلية التي لم تكن تجد ما يفرغها إلا بالفتح. وحين يتم استحياء التراث بكل ما فيه تمر أمراض خطيرة من الصعب ميزها والتخلص منها دون حركات تجديد وإعادة بناء للخطاب الدعوي، والخطابات الدعوية الحديثة في إيران والسودان وغيرهما.

وقد حاولت بعض الرؤوس المفكرة أن تقدم اجتهادات جزئية في مثل قضية المواطنة والجزية والجنسية وما إلى ذلك. لكن الاجتهادات الجزئية لا يمكن أن تحدث تغييرا حقيقيا أو تجديدا؛ لأن التجديد يتوقف على إعادة الوعي بالرؤية الكلية التي يستند إليها الخطاب وينبثق عنها، وهذا ما لم يحدث في حالة اللإسلاميي. فقد بقي النموذج الذي يتبنّاه الإسلاميون لسحب الشرعية من جميع النظم الحاكمة التي صارعوها، أو ثاروا ضدها ما سموه بدولة المدينة والخلافة الراشدة. وقد نسوا أو تناسوا أنّ الزمن ماضٍ إلى غايته التي رسمها الله —جل شأنه– وأنه من المستحيل أن يعاد إنتاج أية حقبة زمنية ماضية في حقبة زمنية مستقبلة. وذلك يعني أنه لابد من البدائل المعاصرة التي لا تستند إلى الفقه الإسلامي ولا تستند إلى أصوله ولا إلى تفسيرات المفسرين للقرآن التي تفسر القرآن تفسيرًا تجزيئيًّا، ولا بمسألة الروايات الحديثية المتناثرة التي تعطي للحديث الواحد كيانا مستقلا. لا يمكن لهذا كله أن يقيم دولة معاصرة قوية تجمع بين الأصالة والمعاصرة.

إذا نظرنا إلى الكيان الصهيوني الذي نجح في أن يقيم دولة دينية في هذا العصر، نستطيع القول أن دولتهم لم تنجح لمجرد كونها دولة دينية أقامها اليهود على التوراة والتلمود. بل كان أهمّ عناصر نجاحها أنها ربطت بقوة بين الصهيونية باعتبارها فكرة قومية وبين اليهودية باعتبارها مصدر الإلهام الديني ربطًا محكمًا جعلها قادرة على أن تستلهم من كل منهما ما تقوي بها كيانها وتعزز بها وجودها في حين فشل الإسلاميون والعروبيون معًا في إيجاد معادلة مماثلة وإن استطاعوا في الآونة الأخيرة أن يحققوا نوعًا من التلاقي على نسيان الماضي والاهتمام بالحاضر وعقد اللقاءات القومية والإسلامية وما إلى ذلك.

إن حركات الإصلاح عبر التاريخ الإسلامي التي تنطلق باتجاه المناداة بالعودة إلى الأصول وإلى الكتاب والسنة لا تلبث إلا قليلا لتجد نفسها أثيرة تراث إنساني تم تصنيعه في العصرين الأموي والعباسي ليهيمن على فكر الأمة وفقهها وفقه التدين فيها. وبعد أن ينطلق الإصلاحيون إذا بهم يعودون إلى حالة من التراجع بعد عجزهم أمام تلك الأمراض والعقبات الكامنة من عصور بناء التراث فيه، فتبدأ حالة انشقاق بين الإصلاحيين وقد يتصاعد الاحتقان إلى درجة التقاتل، ونستطع أن نضرب أمثلة بالحركات الوهابية والسنوسية والمهدية ثم بعض الحركات المعاصرة؛ ولذلك فإن الظاهرة أحوج ما تكون إلى دراسات متعمقة مخلصة من أهل الاختصاص ترشد المسيرة، وتسمح لها بأن تؤتي ثمار إيجابية، وإلاّ فإننا نخشى أن يكون ذلك التراجع مما يؤدي إلى تحميل الإسلام مسؤوليات عن إخفاقات لم تسهم أصوله فيها بل أسهم في تكوينها إصابات تراثية كثيرة.